

حرف الجيم بين الشمس والقمر

الأستاذ محبوب الحلبلي

جامعة دهام - بريطانيا

لقد سببت هذه التغيرات في اللفظ مشاكل شتى في اللغة العربية اخص منها مسألة الجيم كحرف من الحروف القمرية ، اذ كثيرا ما يجنح البعض من ابناء البلاد العربية وخصوصا في العراق وسوريا الى لفظ الجيم كصوت شمسي اي بادغام لام المعرفة في الجيم عند وقوعها في اول الكلمة فيقولون اجمل بدلا من الجمل . ولا تقتصر هذه المشكلة على الصمويات التي يلاقيها مدرسو اللغة العربية في تلك الاقطار بل تمتداه الى احوال يرتكب فيها بعض الخطباء والمذيعين هذه الاخطاء فيتعرضون بذلك الى انكثير من النقد واللوم . على ان هذا الميل للفظ الجيم كصوت شمسي لا يعدو ان يكون ميلاطيعيا تتطلبه السهولة في اللفظ والجمال في النطق ، وهذا يدفعنا لكي نضع استفهاما كبيرا عن سبب ابقاء الجيم بين الحروف القمرية دون الاخذ بالاعتبارات الاخرى التي تحيط بهذه المسألة .

يشغل حرف الجيم مكانا فريدا بين الحروف الاخرى بتنوع طرق لفظه في اللهجات العربية الى درجة لا يكاد يضاهيه فيها اي حرف آخر ، فهو في الشام رخو قريب الى الشين لما فيه من تعطيش بالغ وهو في العراق اكثر شدة (1) ، فيه اثر ضئيل من التعطيش اما في القاهرة فانه يلفظ شديدا مجهورا (2) على غرار ما يسميه البعض بالجيم القاهرية ، بينما نجده قد صار دالا في بعض مناطق الصعيد المصري وباء عند بعض قبائل الكويت ، وجنوب العراق .

ومما يجدر ملاحظته ان هذه الظاهرة تشتمل الحرفين **J** و **G** في اللغات الاوربية وهما نظيرا للجيم في العربية . اذ ان الـ **J** يلفظ ياء في الالمانية وخاء في الاسبانية ، وهو في الانجليزية كالجيم العراقية وفي الفرنسية كالجيم الشامية . كما ان الـ **G** يلفظ احيانا في الانكليزية والفرنسية كالجيم القاهرية بينما يتخذ في احيان اخرى اشكالا كالتي اسلفنا ذكرها .

(1) الصوت الشديد هو الصوت الانفجاري الذي يحدث بانحباس الهواء عند مخرج الصوت انحباسا تاما ثم انطلاقه فجأة عند انفتاح المخرج كالبناء والثناء ، وعكسه الصوت الرخو.

(2) الصوت المجهور هو الصوت الذي يستوجب عنده اهتزاز الوترين الصوتيين اثناء مرور الهواء بهما كالدال والفين ، وعكسه الصوت المهموس .

يقول سيبويه « ولام المعرفة تدغم في ثلاثة عشر حرفا لا يجوز معهن الا الادغام لكثرة لام المعرفة في الكلام وكثرة موافقتها لهذه الحروف واللام من طرف اللسان وهذه الحروف احد عشر حرفا منها حروف طرف اللسان وحرفان يخالطان طرف اللسان ... والاحد عشر حرفا النون والراء والدال والطاء والصاد والظاء والزاي والسين والظاء والشاء والذال واللدان خالطها الضاد والشين » (3) . وبغض النظر عن السبب الذي جعل سيبويه لا يذكر اللام نفسها بين هذه الحروف الا ان الحروف الباقية وهي التي اصطلح على تسميتها بالحروف القمرية لا تدغم فيها لام المعرفة وبجمعها فذلك ابغ حجك وخف عقيمه .

واود في معرض هذا الحديث ان يؤكد الفرق بين حالتي الحرف المشار اليه هنا ، الاولى كرمز مكتوب تحفظه الكتب من التغيير عبر المصور والثانية كلفظ مسموع لم يكن هناك من وسيلة لحفظه قبل ظهور اجهزة تسجيل الصوت الحديثة . فالخلط بين الرمز واللفظ امر يجب تجنب الوقوع فيه في حكمنا على الجيم وغيرها في وقتنا الحاضر ، اذ على الرغم من ورود الجيم كحرف قمرى منذ بدء اهتمام العرب بعلم الاصوات الا اننا لا نزال غير متأكدين من الطريقة التي كان يلفظ بها هذا الحرف عند قدماء العرب ، فقد جاء عن الخليل بن احمد الفراهيدي في كتاب العين ان الجيم والشين والضاد شجرية لان مبداءها من شجر الفم أي مفرج الفم (4) ، اما سيبويه فقد كان اكثر تفصيلا اذ يخبرنا ان من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الاعلى مخرج الجيم والشين والباء ، كما انه وصف الجيم بأنها من الحروف الشديدة المجهورة ، فهذه الاوصاف رغم اعطائها فكرة جيدة من طريقة لفظ هذا الحرف في ايام الخليل وسيبويه الا انها غير كافية لتدلنا على اللفظ بعدا فيره .

وقد كانت هناك اكثر من محاولة من قبل المهتمين بعلم الاصوات في وقتنا الحاضر لاستنتاج الطريقة التي كان ينطق بها هذا الحرف عند قدماء العرب فنجد الدكتور ابراهيم انيس يقول « ويظهر

ان الجيم التي نسميها الآن من مجيدي القراءة هي اقرب الجميع الى الجيم الاصلية، ان لم تكن هي نفسها » (5) . واغلب الظن ان المقصود هنا بالجيم الاصلية هي تلك التي كان ينطق بها ايسام الخليل وسيبويه اذ ان من الصعب افتراض جيم اصلية لم يسبقها تطور في اية مرحلة من مراحل التاريخ . ومهما يكن من امر فان الارجح ان الدكتور ابراهيم انيس كان متغائلا في استنتاجه واننا في الواقع لا نزال بعيدين عن التوصل الى صورة اكددة للطريقة التي كان ينطق بها حرف الجيم التي وصفها سيبويه قريبة من التي نسميها الآن من مجيدي القراءة القروانية لوصفها ، كما وصف العين ، بأنها بين الشدة والرخاوة ولما ابقاها بين الحروف الشديدة ، بل ان الجيم وردت كنموذج للحروف الشديدة في الامثلة التي جاءت في الفصل للزمخشري اشرح ابن يعشرا . وحتى في القرن التاسع الهجري نجد ان ابن الجزري يعتبر الجيم من بين حروف القلقة (6) ، وهي الحروف الشديدة المجهورة . وانا لا استبعد ان يكون تطور الجيم نحو شيء من الرخاوة نوعا من الحرص للبقاء على جهرها وهي بهذا تختلف عما هو اكثر شيوعا وهو الابقاء على الشدة والتطور من الجهر نحو الهمس .

وهناك دلائل تشير الى ان وضع الجيم لم يكن على درجة كبيرة من الاستقرار منذ تلك الايام وان هناك ميلا للانحراف بمخرج الجيم الى مخارج قريبة فسيبويه يكشف ذلك بقوله « ... وتكون اثنين واربعين حرفا بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضي عربيته ولا تستحسن في قراءة القراء ولا في الشعر وهي الكاف التي بين الجيم والكاف والجيم التي كالكاف والجيم التي كالشين والضاد الضميقة ... » (7) كما نجد ان ابن الجزري بعد ذلك بعدة قرون ينصح بالتحفظ باخراج الجيم من مخرجها « فربما خرجت من دون مخرجها فينتشر بها اللسان فتصير مزوجة بالشين كما يفعل كثير من اهل الشام ومصر وربما نبا بها اللسان فاخرجها مزوجة بالكاف كما يفعل بعض الناس وهذا

(3) الكتاب، الجزء الثاني صفحة 416

(4) العين صفحة 2

(5) الاصوات اللغوية صفحة 65

(6) «النشر في القراءات العشر» الجزء الاول صفحة 203

(7) لكتاب الجزء الثاني صفحة 404

وادغام لام التعريف في الحروف الشمسية يتم بالدرجة الأولى نتيجة الاقتصاد في الجهد العضلي ، وهو أمر مسلم به منذ القدم كما يعبر عنه سيبويه بقوله « ليكون عمل اللسان من وجه واحد » ، فالحروف الشمسية كلها اصوات ذات مخارج لسانية قريبة من مخرج اللام وهذا يسبب تاثير الصوتين بالمجاورة وبالتالي ادغام لام التعريف وفناءها في الحرف الشمسي الذي يليها . بينما لو استعرضنا الحروف القمرية لوجدنا ان اللسان لا يستعمل الا في نطق ثلاثة منها وهذه بعيدة عن مخرج اللام على أي حال ، اما الجيمان الشامية والمراقية فلنبرهنه على انهما ينتميان الى مجموعة الاصوات الشمسية البك اختبارا بسيطا :

ضع لسانك في الموضع الطبيعي للفظ صوت اللام وابق لسانك في هذا الموضع ولكن بدلا من لفظ اللام الفظ عبارة ابع حرك وخف عقيمه . وهي العبارة التي تجمع الحروف القمرية كما اسلفنا . ستجد انك تستطيع لفظ العبارة كلها بوضوح فيما عدا الجيم اذا كانت شامية او عراقية .

ان هذا الاختبار على بساطته يرينا كيف ان عمل اللسان في لفظ اللام يكون « من وجه واحد » مع الجيمين وبذلك كان ادغام لام التعريف بهما مناسبا . وبصورة عامة فان هذا الاختبار يعطينا طريقة مباشرة لتقدير اهلية الصوت اللغوي لادغام لام التعريف به أي للحكم على كون الصوت شمسيا او قمريا .

وبناء على كل ما تقدم فانني لا ارى أي مبرر للاصرار على ابقاء الجيمين الشامية والعراقية في ضمن الاصوات القمرية وقد حان الوقت لكافة الذين تعادفهم هذه المشكلة ان يتقبلوا الامر على اساس من المنطق . اما الذين يستشهدون بسيبويه فذكر لهم انه انما كان يتحدث عن رمز معين لا دليل لنا اليوم كيف كان بلفظ ، واني على يقين انه لو كان سيبويه اليوم حيا بيننا لوضع الجيمين الشامية والعراقية مع اللواتي « لا يجوز مهن الا الادغام » .

موجود كثيرا في بوادي اليمن » (8) . على ان ابن الجوزي لم يكن بنفسه وانما من مخرج الجيم الحقيقي حيث يقول « للجيم والشين المعجمة والياء غير المدية من وسط اللسان بينه وبين الحنك ويقال ان الجيم قبلهما وقال المهدي ان الشين تلي الكاف والجيم والياء يلبان الشين وهذه هي الحروف الشجرية » (9) . وعلى كل حال فان ابن الجوزي يختلف هنا عن بعض اسلافه من امثال ابي علي القالي المولود في اواخر القرن الثالث الهجري والذي اعتبر ان مخرج الجيم يلي مخرج الصاد .

ان ما سبق يشير الى ان ثمة تطورا ما قد صاحب نطق الجيم طوال هذه المدة وان الجيم التي وصلتنا تختلف بكل اشكالها الحالية عن نظيرتها لدى الخليل فلا عجب ان نجد الدكتور مهدي الخزومي يخبرنا في كتابه عن الخليل بان الحديث يخالفون الخليل وسيبويه بالنسبة لمخارج الحروف الشجرية اذ هم يعدون مخرج الياء والجيم من بين مقدم اللسان وسقف الحنك الصلب والشين من بين اسلة اللسان او ما يليها وبين حافة الاسنان . وانا استبعد جدا ان يكون اختلاف الخليل وسيبويه من جيلنا سببا عن خطأ منهما وما هذا الاختلاف الا نتيجة حتمية لتطور الجيم ودليلا كافيا على اننا ما زلنا بعيدين من جيم القرن الثاني الهجري .

وها نحن اليوم ننطق بجيم عراقية ، وهي قريبة جدا لما نسمعه من مجيدي القراءة القرآنية ، واخرى قاهرية وثالثة شامية ورابعة تنطق بـاء الخ . . انحدرت اليها كلها بهذه التشعبات بفعل عوامل معينة لا تبعد ان تكون هي نفسها التي سببت تشعب نظيرات الجيم في اللغات الاوربية . الا ان المهم في هذا البحث هو موضوع ادغام لام التعريف في الجيمين اللتين اسميتهما بالشامية والمراقية نظرا لان الملايين من الناطقين بالعربية يستعملونها كل يوم . وعندهم تكون الجيم شمسية اذا تكلموا بصورة عادية وتكون قمرية اذا تكلموا باللفظ واصطنعوا الفصاحة نزولا عند قانون سن منذ اثني عشر قرنا خلت فتغيرت الجيم وبقي القانون .

(8) « النشر في القراءات العشر » الجزء الاول صفحة 217 .

(9) المصدر السابق ص 200 .